الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محند أولحاج
-البويرة-
كلية الآداب واللغات

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
Tasdawit Akli Muḥend Ulḥağ - Tubirett -
Faculté des Lettres et des Langues

جامعة البويرة

قسم اللّغة والأدب العربي

الرثاء عند الخنساء وابن الرّومي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الليسانس في اللّغة والأدب العربي.

إعداد الطالبتين:

- ساهي كريمة
- مرزوق حفيظة

إشراف الأستاذ:

بوعلي كحال

السنة الجامعية: 2013/2014

تشكر

الحمد لله المحبوب المحبوب الذي هو مصدر توفيقنا
وسر نجاحنا وسدد خطانا حتى نلنا مبتغانا وقطفنا
ثمار جهدنا بكل فخر واعتزاز وبكل تواضع و امتنان
نتقدم بأسمى معاني الشكر والتقدير إلى أستاذنا الفاضل
"بوعلي كحال"
الذي أشرف على تأطيرنا والذي كان نِعم السند المعين
فجزاه الله خيرا ك وجعل عمله في ميزان حسناته.

كريمة ـ حفيظة.

إهداء

بسم الله مولانا الذي ألهمنا وسدد خطانا له الحمد والشكر، سهل لنا الصعاب ووهب لنا العلم والعزائم وبه لا شيء في الوجود سنهاب إلى من ذكروا في القرآن ومنزلهم عند الرحمان بعد قوله: "وبالوالدين إحسانا"

إلى ريحانة حياتي وبهجتها التي غمرتني بحنانها وعطفها، وأنارت لي درب الحياة بحبها إلى وطن الأوطان أمي "زهوة"

إلى رمز الرجولة والتضحية، إلى قرة عيني وتاج فؤادي وبه أزداد إفتخارا أبي "أحسن"

إهدائي لكما يا من كانت دعواتكما ونصائحكما سندا لي في مشواري الدراسي، أدام الله صحتكما وأطال لي في عمركما

إلى سر النجاح وقدوتي في مسيرتي إلى من أرشدوني إلى وضع خطط وأناروا لي درب الوصول إخوتي "فارس، زهية، عادل، كريم، سليم"

إلى رمز البراءة وإبتسامة البيت "ريان"

إلى من عملت معي بكد بغيت إتمام هذا العمل زميلتي "حفيـظة مـرزوق"

أقدم لكم العمل في زورق محمل بأرق العبـارات وأجمـل التحيـات راجيـة من المولى عزّوجل كل التوفيق والعـــــون فـي مشـوار الحياة.

كريمة

إهداء

بسم الله الرحمان الرحيم

إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم خير الخلق "محمد"

إلى التي غمرتني بعطفها وحنانها، ووهبتني عمرها، وجعلت فيا امرأة تقدس العلم، وأعانتني في إتمام مشواري الدراسي إلى القلب النابض حبا وخيرا، إليك امتنانا عميقا وحبا أعمق "أمي" العزيزة

إلى من عمل على تربيتي، إلى من أطعمني طعم الحب وسقاني العطف و غطاني بغطاء المعرفة، ولم يبخل عليا بدعواته، إلى الذي غرس فيا حب العمل، وظل ينو إلى أن أثمر وتفتحت أزهاره "أبي العزيز"

إلى جميع أفراد عائلتي: فاتح، فتيحة، صبيحة، سعيدة، وإلى رمز البراءة سلوى و إيمان

إلى كل زملائي في الدراسة وخاصة كريمة

إلى كل من هو في ذاكرتي وليس في مذكرتي.

حفيظة

كلمة شكر

تتقدم بها حفيظة إلى:

اليد الكريمة التي ساهمت بكثافة لتضع الأساس المتين لعملي هذا إلى الرجل الطيب النشيط الذي سار بخطى ثابتة واتخذ معي بجهده وجهاده ساهرا كي يضع لمذكرتي تاجا

إلى الجوهرة الثمينة إلى زوجي الغالي "إبراهيم"

أهدي لك ثمرة جهدنا المشترك شاكرة إياك من أعماق قلبي الذي يزف لك الحب والاحترام وكل هذا رفع بك إلى أعلى قمم قلبي فليكن الله معك دائما ويمنحك القرة وينير دربك بالإيمان والشجــاعـة

شكرا

حفيظة

الرثاء عند الخنساء وابن الرومي

تمهيد:

الفصل الأول:

1 ـ التعريف بالخنساء وابن الرومي

أ ـ حياة الخنساء

ـ قصة الخنساء مع أولادها وأخيها صخر

ـ مدى تأثر الخنساء بموت أخيها صخر

ب ـ حياة ابن الرومي

ـ مدى تأثر ابن الرومي بموت ولده الأوسط

ـ قصة ابن الرومي مع أولاده

الفصل الثاني:

II ـ دراسة خصائص الرثاء عند الخنساء وابن الرومي

1 ـ موضوعات الرثاء عند الخنساء

ـ النزعة العاطفية

ـ الصورة الفنية

2 ـ دراسة خصائص الرثاء عند ابن الرومي

موضوعات الرثاء عند ابن الرومي

ـ النزعة العقلية

ـ الصورة الفنية

خاتمة

مقدمة:

الرثاء من الموضوعات البارزة في الأدب العربي، إذ بكى الشعراء من رحلوا عن الدنيا وطواهم الموت وأيضا رثى الشعراء كل شيء زال، كان حضارة أو عمارة، أو ملك، ولهذا قسم الرثاء إلى نوعان:

الأول: رثاء الأفراد واشتهرت به الخنساء في رثائها لأخويها صخر ومعاوية وابن الرومي في العصر العباسي في رثائه لأولاده.

ثانيهما: هو رثاء المماليك والمدن في الأدب العربي وما يشكله من جانب رائع يعبر عن وجدان العرب بفقدان ملكهم أو مدنهم، وقد قال في ذلك الكثير من الشعر في كل من الخنساء وابن الرومي ولروائع قصائدهما ظلت تردد على الألسنة، رغم زوالهما.

وقد وقع اختيارنا لموضوع الرثاء بالمقارنة بين رثاء الخنساء وابن الرومي لعدة أسباب أهمها:

1 ـ التعرف على حياة الخنساء وابن الرومي ومدى تأثرهما بأعز ما يملكان.

2 ـ اكتشاف أبرز الخصائص والموضوعات التي عالجها كلا من الشاعرين.

ومن خلال هذه الأسباب نتوصل إلى طرح هذه الإشكالية:

ـ هل تأثرت الخنساء كثيرا خلال موت أخويها كتأثر ابن الرومي بموت أولاده؟ وإن كان قد تأثر بشكل كبير كلاهما. هل هذا التأثر جعلهما تتحكم النزعة العاطفية في قصائدهما أم تتدخل الثقافة الفلسفية العقلية؟

ـ هل لكل من هذين الشاعرين له خصوصية في قصائده أم كلاهما واحد؟

وقد رتبنا أفكار بحثنا في خطة شملت مقدمة، فصلين وخاتمة أما فصول هذا البحث كانت كما يلي:

I ـ الفصل الأول جاء بعنوان: حياة الخنساء وابن الرومي ومدى تأثرهما بموت أعز ما يملكان وكان هذا الفصل في مبحثين اثنين

المبحث الأول: تحدثنا عن حياة الخنساء وابن الرومي البائسة والتعيسة، والمبحث الثاني تناولنا مدى تأثر الخنساء وابن الرومي بوفاة أعز الناس إليهما.

أما الفصل الثاني: تطرقنا إلى دراسة شعرهما والتوصل إلى مجموعة من الخصائص والموضوعات التي رثا فيها الشاعرين.

أما المبحث الثالث والأخير توصلنا إلى معرفة أغراض الرثاء لهما، وأخيرا أنهينا موضوعنا هذا عرضنا فيها حوصلة حول نقاط التشابه والاختلاف بين الخنساء وابن الرومي.

وقد اعتمدنا في هذه المذكرة على المنهج المقارن، ولا نريد أن نتحدث عن الشقاء والمكابدة والصبر في هذا المبحث، فنحن نؤمن بأن بحثنا كفيل بتقديم نفسه للدراسة وتأتى دراسة أولية فمن الطبيعي أن نتلقى بعض الصعوبات والعراقيل كطريقة معالجة الموضوع، وكذا عدم توفر المراجع فيه وخاصة فيما يخص الخنساء.

نرجو أن نكون قد قدمنا عملا نافعا مفيد في مجال البحوث الأدبية بهذا الجهد المتواضع الذي لا ندعي له الكمال، فذلك لا سبيل إليه فالكمال لله وحده. وآخر دعوانا

"أن الحمد لله رب العالمين"

تمهيد:

يعتبر الشعر العربي القديم نتاج وجداني مطبوع، فقد استوحى الشاعر أبيات قصيدته من البيئة التي كان يعيش فيها، ومهما طالت القصيدة أو قصرت فقد جاءت تقليدا ثابتا أوزانها وقوافيها، فهي تتألف من وحدات موسيقية تتحدد مع بعضها لتشكل البيت الشعري ولهذا قالوا: الشعر مرآة الحياة.

وكانت البادية هي بيئة الشعر مع نبوغ عدد من أهل المدن بالقصيدة غير أن فحول الشعراء هم من أهل الوبر الذين كانوا يسكنون الخيام في بواديهم وصحاريهم، وعلى هذا الأساس نرى خصائص الشعر حول البادية وما فيها من طلل وناقة وفرس وصيد ووصف لرحلاتهم وما يركبونه، ومن هذه الخصائص نجد:

أولا . الخصائص المعنوية:

1 . الصدق: الشعر وثيقة يعبر بها الشاعر عن حياته وبيئته بكل ما فيها وبجميع أنواعها وما يختلج في نفسه دون تكلف فهو يتحدث بما يشعر به.

2 . النزعة الوجدانية: الشاعر مطبوع في شعره على النزعة الوجدانية يصف بشعوره حتى عندما يمدح أو يرثي أو يقول حكمة.لأن بساطته وطبعه مطبوع على الصراحة وذلك لعفويته في النظم وسير الحياة وبعيدا عن التعقيد.

3 . البساطة: الحياة البدوية حياة فطرية تملؤها البساطة فلا تكلف لا تحليل ولا تغليل.

4 . الاستطراد: لقد أحب النقاد في الشاعر الجاهلي طوال نفسه، مما أدى إلى إطالة قصيدته، فينتقل من موضوع إلى آخر فقد يبتدئ بموضوع وينتهي بموضوع مخالف.

5 . الخيال: اتسع الخيال الشاعر في العصر الجاهلي باتساع أفق الصحراء التي كان يعيش فيها وقد اعتمد الخيال على التشبيهات والاستعارات أكثر من انتزاع الصور[1].

ثانيا: الخصائص اللفظية:

1. غرابة الألفاظ وجزالتها: يعنى بها الكلمة الفخمة التي تقع موقعها من الاستعمال والصيغة في الشعر صيغة موسيقية والشاعر كان يستخدم ألفاظه من واقعه المعاش البيئة المحيطة به.

2 . متانة التركيب: من أهم ما يلفت النظر في الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة فالتراكيب تامة والعبارة مستوفاة، والتركيب متين يجري على قواعد اللغة ليس فيه عيب في التقديم والتأخير فلا زيادة فيه دون فائدة.

3 . العناية والتنقيح: كان الشاعر الجاهلي في شعره على طبيعته الفطرية وسجيته، فهو لم يتكلف نظمه وإنما يلقيه كما يخطر له ويدور في خياله[2]

إذا أمعنا النظر في القصائد الجاهلية فإننا نجد أن الشعراء يسيرون فيها على نهج خاص بهم، فهي تتشكل عند الشاعر نظرا لأحواله النفسية وأحوال زمانه ومكانه، فتأتي امتدادا لنغمة البيت الواحد فتكرار موسيقي غنائي صحبة معاني غزيرة وصور متنوعة، وتقسيم غريب الأفكار حتى تجتمع أجزاء القصيدة وتتابع أبياتها.

وهكذا نرى القصيدة عبارة عن نبضات واهتزازات عاطفية وسلسلة من التفاعلات والانفعالات، غير أن هناك قصائد تأتي مستقلة بغرض واحد وتعالج موضوع واحد كذلك نجد الشعر في العصر العباسي مشحون بتقنيات جديدة بحيث يأتي شعراء العباسيين بالحجج العقلية أو البراهين العقلية الشعرية، بحيث يمتاز الشعر العباسي بكثرة استدلالهم لما يذهبون إليه من رأي أو فكرة وذلك لأنهم أفادوا من دراسة الفلسفة والمنطق فأصبحت نفوسهم لا تقتنع بالرأي دون دليل ولأنهم في التعمق وراء

[1] . يوسف عطا الطرفي ، شعر العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن 2006. ص 16.18.

[2] . يوسف عطا الطرفي، المصدر السابق، ص28.

المعاني كانوا يصلون في كثير من الأحيان إلى الحكم على الأشياء تغير المألوف، ولا بد للحكم حينئذ من برهان يدعمه أو قياس يقربه من مألوف الناس، ولذلك كثر في أدبهم حسن التعليل .[1]

ومن خصائص الشعر العباسي أيضا براعة التصوير والافتتان فيه وسمو الخيال واتساع آفاقه.

فقد عرف الشعراء مسالك غيرهم في تصور الأشياء وتصويرها ورأوا مسابح للخيال لا تقف عند الجزء أو تجهد في تصويره، بل تنظر إلى الكل نظرة شاملة يعنى على إخراجه في صورة كاملة مترابطة، ولعل إفادتهم في هذه الناحية كانت محدودة لغلبة التأثر بالأدب القديم، ولكنها على كل حال تركت آثار لا تكاد تلمحها عند السابقين عنهم.

والحضارة كذلك لها نصيب ومن الآثار التي ظهرت في أدبهم طول النفس و امتداده واتساع القصيدة لمئات الأبيات فقد اكتسبوا القدرة على مطالعة الفلسفة والعلوم العقلية على التفسير والتحليل، وامتلأت أذناهم بالمعاني والأفكار يبسطونها ويقلبونها على جميع وجوهها ويضعون الصور الكثيرة لها، ويحتجون بما وسعهم من الدليل والبرهان، ولذلك انفسح مجال القول أمامهم انفساحا لم يكن لمن كانوا قبلهم، بل كان للمتأخرين أوسع من المتقدمين منهم لتعادل الأسباب وتوافرها.

ومصداق ذلك في الرجوع إلى ما قدمناه من الاحتجاج للحقد واتسع وانبسط عند ابن الرومي في طول النفس غير الهلهلة التي يخلقها العجز والحيرة، كما أن الشعراء العباسيون يقصدون ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التي يتجلى فيها الزخرف الفني وجمال الصبغة وسحر الأداء[2].

[1] – محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار الوفاء للنشر، الإسكندرية. 2004 ص63.60.

[2] . محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي، المصدر السابق، ص 64 . 65.

فكلا من العصرين الجاهلي والعباسي تطرقا إلى غرض من أغراض الشعرية وهو الرثاء.

منذ بدء الخليقة والإنسان يتهرب من الموت الذي لا بد منه ويتذكره كلما سمع بوفاة وكلما مكان فقيدا عزيزا وقليل جدا من يجد الصبر والصلابة أمام موت أحد الأقرباء أو الأعزاء على قلوبهم ومهما كان الإنسان غنيا أو فقيرا، أميا ومثقفا أسودا أم أبيضا يتألم أمام الموت[1]

يفتقد لمن مات ويعدّ مزاياه حتى أن البعض إذا مات عدوهم تأسفوا عليه ووجدوا بعد فوات الأوان صفة على الأقل حسنة، فإذا كان الشعراء أشد الناس انفعالا وتأثرا وطالما لا يختلفون عن غيرهم بمسألة الموت الذي يسلخ عنهم بعض الأعزاء فإنهم وقفوا كثيرا أمام هذه المأساة الإنسانية ورثو أحبائهم وأقاربهم وكل من كانوا يهتمون لأمره، وذكروا مزايا الفقيد الخلقية وغيرها من الصفات وأشاروا إلى نسبه ومكانته في حياتهم وفي المجتمع وكثيرا ما بالغوا في الرثاء فلامس بعضهم حدود الفكر حتى أن بعضهم وقع في الكفر، كذلك كان هناك فريق من الشعراء رثوا أحبائهم بحسرة ولكن باستسلام للقدر وبرضوخ لمشيئة الله ونظام الحياة كما فعلت الخنساء عندما استشهد أولادها بحيث رضخت لمشيئة الله.

فإذا المدح تكسبا في أكثره، فإن الرثاء كان شعورا صادقا ينحرف فيه الشاعر وراء قلبه فيصف ألمه وإحساسه بالعذاب لفقدانه للذي أحبه.

وكما مدح الشعراء الناس والبلاد كذلك رثو المدن والحضارات ورثو في أنفسهم عندما كانوا يجدون أن ساعتهم قد دنت أو عندما كانوا يشعرون بأنهم أحياء ولكن أموات وسط عالم يشعرون به بالغربة[2]

[1] . محمد سراج الدين ، الرثاء في الشعر الجاهلي، دار الراتب الجامعية، لبنان . ب ت . ص 05.

[2] . سعد بوفلاقة، دراسات في الأدب الجاهلي ، المصدر السابق، ص 111.

فالرثاء في حقيقة الأمر هو البكاء على الميت يذكرون فيه محاسنه ممزوجة بالمدح أو طلب الثأر والتهديد، وغالبا ما يكون الرثاء على الأقارب أشد عاطفة مثل رثاء الخنساء كان أكثر نواحا وحزنا[1]

فيمكن أن نقول أن الرثاء غرض من أغراض الشعر الغنائي الذي ازدهر في العصر الجاهلي وهو التأسف على الميت ولذلك نجد الجاهليون يرثون بالخصال التي كانوا يفتخرون بها ويمدحون، فنجد في الرثاء ثلاثة أنواع:

أولا: الندب: هو التفجع والبكاء على الميت بألفاظ حزينة تذرف الدموع.

ثانيا: التأبين: يتخذ شكل الثناء على الميت وذكر مزاياه ومكانته الاجتماعية أما ثالثا وأخيرا نجد **العزاء:** هو الرثاء إلى التفكر في رحلة الحياة ومصير الإنسان[2]

كما ازدهر الرثاء في العصر العباسي، فلقد قرب الشعر من نفسية صاحبه وأصبح وسيلة للتعبير كما يحسه ويشغل فكره فنشعر أحيانا أن هناك بعض من الشعراء من وجهوا الشعر كمصدر رزق لهم فإنهم لم يبخلُ على أنفسهم أن ينفثوا فيه أحزانهم ويجعلونه تعبيرا عن الذات قبل أن يكون تعبيرا عن الآخرين[3] بالإضافة إلى ذلك نجد قصائد الرثاء قد اختلطت بالفلسفة والتأملات في أواخر العصور فهذا ما اتصف به ابن الرومي فلقد استعمل النزعة العقلية في رثاءه لتصبح دروسا أخلاقية تذكر الإنسان بالقدر المحتوم وتدعوه للعمل الصالح قبل أن يضمه التراب والحقيقة بأن الموت واحدة والانفعال أمامه واحد.

فقصائد الرثاء جاءت متشابهة في كل العصور الأدبية باستثناء دخول الفلسفة عليها في العصور المتأخرة وظهور نوع من الرثاء السياسي والمذهبي في العصر الأموي والعباسي. عندما انطلق كل فريق من الشعراء يبكي على الذين فقدوهم في

[1] . سامي يوسف أبو زيد، الأدب العباسي الشعر دار الميسرة للنشر، عمان 2011 . ص 49.

[2] . محمد سراج الدين ، المصدر السابق، ص05.

[3] . سامي يوسف أبو زيد، المصدر السابق ، ص 49.

المعارك والفتن ويهجون أعدائهم، كما قاموا برثاء المدن والممالك فقد رضى الشعراء الإنسانية بشكل عام ورثوا أنفسهم بشكل خاص وغاصوا في وجداناتهم وتأملاتهم[1]

حياة الخنساء:

هي تماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد السلمية الملقبة بالخنساء المولودة في جزيرة العرب عام 575 م و المتوفية عام 664 م.

لقبت بالخنساء لقصر أنفها وارتفاع

عرفت بحرية الرأي وقوة الشخصية يستدل على ذلك من خلال نشأتها في بيت عز وجاه مع والدها وأخويها معاوية وصخر.

ومن خلال القصائد التي كانت تتفاخر بها بكرمها وجودها، وأثبتت قوة شخصيتها برفضها الزواج من دريد بن الصمة أحد فرسان بني حبشم لأنها آثرت الزواج من أحد بني قومها، فتزوجت من ابن عمها رواحة بن عبد العزيز السلمي وأنجبت منه ولدًا يدعى عبد الله، إلا أنها لم تدم طويلا معه لأنه كان يقامر ولا يكترث بماله.

ثم تزوجت من ابن عمها مرداس بن أبي عامر السلمي وأنجبت منه أربعة أولاد وهم: يزيد، معاوية، عمرو، وعمرة.[2]

وتعد الخنساء من المخضرمين لأنها عاشت في عصرين الجاهلية وعصر الإسلام وقالت جل شعرها في الجاهلية، وعاصرت النابغة الذبياني الذي قال لها عندما عارضت عليه شعرها: والله لولا أن أبا بصير يعني . الأعشى . لأنشدني آنفا لقلت أنك أشعر الجن والإنس، ووضعها ابن سلام في طبقة أصحاب المراثي، وقد رثت أخاها

[1] . محمد سراج الدين ، المصدر السابق، ص 05 . 06.

[2] حسني عبد الجليل يوسف، علم البديع بين الاتباع والابتداع، دراسة نظرية وتطبيقية في شعرالخنساء، الإسكندرية. 2007. ص 1109.

صخر وقصرت على رثاءه كل شعرها، عدا بعض القصائد التي رثت فيها أخاها معاوية.

ولما ظهر الإسلام أسلمت الخنساء مع قومها وانبعثت مع المسلمين لفتح بلاد فارس.

وجاء في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: هي الخنساء بنت عمرو بن الحارث بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عصية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر واسمها تماضر.

والخنساء لقب غلب عليها، وفيما يقول دريد بن الصمة، وكان خطبها فردته وكان رآها تهنأ بعيرًا:

حيوا تماضر وأربعوا صحبي وقفوا فإن وقوفكم حسبي

أخناس قد هام الفؤاد بكم وأصابه تبل من الحب

ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم طالي أنيق جرب

مبتذلا تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب[1]

حكاية الخنساء مع أولادها الأربعة:

قتل معاوية على يد هاشم ودريد ابنا حرملة يوم حوزة الأول سنة 612 م فحرضّت الخنساء أخاها صخر بالأخذ بثأر أخيه، فقام بقتل دريد ولكن صخر أصيب بطعنة دام إثرها حولا كاملا وتوفي في يوم كلاب سنة 615 م فبكت الخنساء على أخيها صخر قبل الإسلام وبعده حتى عميت.[2]

وفي الإسلام حرّضت الخنساء أبناءها الأربعة على الجهاد وقد رافقتهم مع الجيش زمن عمر بن الخطاب وهي تقول لهم: «يا بني إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم

[1] ديوان الخنساء، دار صادر بيروت ب ت، ص 05

[2] أحمد طاهر طيفور أبي الفضل، بلاغات البناء، الجزائر.2007 ص270.

مختارين، و والله الذي لا إله إلا هو إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله عزوجل «يا أيها الذين آمنوا اصبروا و صابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون».[1]

وأصغى أبناؤها إلى كلامها، فذهبوا إلى القتال واستشهدوا جميعا في موقعة القادسية. وعندما بلغ الخنساء خبر وفاة أبنائها لم تجزع ولم تبك، ولكنها صبرت فقالت مقولتها المشهورة «الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم و أرجوا من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته» ولم تحزن عليهم كحزنها على أخيها صخر

قصة الخنساء مع أخويها صخر ومعاوية:

تعد الخنساء من الشعراء المخضرمين، تفجر شعرها بعد مقتل أخويها صخر ومعاوية، وخصوصا أخوها صخر، فقد كانت تحبه حبا لا يوصف، ورثته رثاءًا حزينا وبالغت فيه حتى عدت أعظم شعراء الرثاء، ويغلب على شعر الخنساء البكاء والفجع، والمدح والتكرار لأنها صارت على وتيرة واحدة تميزت بالحزن وذرف الدموع.

تعكس أبيات الخنساء عن حزنها على أخويها وبالأخص على صخر، فقد ذكرته في أكثر أشعارها:

ألا يا عين فانهمري بغدر وفيض فيضة من غير نذر

ولا تعدي عزاء بعد صخر فقد غلب العزاء و عيل صبري

وهذا الشعر ترثي به أخاها صخرا وقتله زيد بن ثور الأسدي يوم ذي الأثل.[2]

أخبرنا بالسبب في ذلك محمد بن الحسن بن دريد، عن أبي حاتم عن أبي عبيدة وأضفت إليه رواية الأثرم عن أبي عبيدة قال: غزا صخر بن عمرو، وأنس بن عباس الرعلي في بني سليم، بني أسد بني خزيمة قال أبو عبيدة: وزعم السلمي أن هذا اليوم

[1] ديوان الخنساء، المصدر السابق ، ص6.

[2] ديوان الخنساء، المصدر السابق ، ص6.

يقال له يوم الكلاب ويوم ذي الأثل . في بني عوف وبني خفاف، وكانا متساندين، وعلى بني خفاف صخر بن عمروا الشريدي، وعلى بني عدن أنس بن عباس، قال فأصابوا في بني أسد بن خزيمة غنائهم وسبيا، وأخذ صخر يومئذ بديلة امرأة. وقال: وأصابت صخرا طعنة، طعنه رجل يقال له[1] ربيعة بن ثور، ويكن أبا ثور، فأدخل جوفه حلقا من الردع فاندمل عليه حتى شق عنه بعد سنين، وكان سبب موته.

قال أبو عبيدة، وقال غيره: بل ورد هو بن قيس الكنافي، قال وكان أجمل رجلين في العرب. قال فسربا عند يهودي خمار كان بالمدينة قال فحسدهما لما رأى من جمالهما وهيأتهما، وقال إني لأحسد العرب أن يكون فيهم مثل هذين ! فسقاهما شربة جويا منها، قال خمر بصخر طبيب بعدما طال مرضه، فأرادهما به فقال: أشق عنك فتغيق فقال: فعمد إلى شفار فجعل يحميها ثم يشق بها عنه، فلم ينشب أن مات[2].

قال أبو عبيدة: وأما أبو بلال بن سهم فإنه قال: اكتسح صخر أموال بني أسد وسب نسائهم، فأتاهم الصريح فتبعوه فتلاحقوا بذات الأثل، فاقتتلوا قتال شديدا، فطعن ربيعة بن ثور السدي صخرا في جنبه، وفات القوم فلم يقعص وجوي منها، ومرض قريبا من حول مله أهله.

قال فسمع صخرا امرأة وهي تسأل سلمى امرأة صخر: كيف بعلك؟ فقالت سلمى: لا حي فيرجى، ولا ميت فينعى، لقينا منه الأمرين ! قال: وزعم آخر أن التي قالت هذه المقالة بديلة الأسدية التي كان سباها من بني أسد فتخذها لنفسه. فأنشد هذا البيت:

ألا تكلم عربي بديلة أو حبست فراقي وملت مضجعي ومكاني.

وأما أبو بلال بن سهم فزعم أن صخرًا حين سمع مقالة سلمى امرأته قال:

أرى أم صخر لا تحمل عيادتي وملت سليمى مضجعي ومكاني

[1] أحمد طاهر طيفور أبي الفصل، المصدر السابق، ص 25.

[2] عبد السلام الموفي ، ديوان الخنساء، دار الكتب العلمية ، لبنان 2006 ، ص36.

وما كنت أخشى أن أكون جنازة عليك ومن يغير بالحدثان

أهم بأمر الخدم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

لعمري لقد نبهت من كان نائما وأسمعت من كانت له أذنان

وللموت خير من حياة كأنها محلة يعسوب برأس سنان

وأي امرئ ساوى بأم حليلة فلا عاش إلا في شقا وهوان[1]

فلما طال عليه البلاء وقد نتأت قطعة مثل اللبد في جنبه في موضع الطعنة قالوا له: لو قطعتما لرجونا أن تبرأ.

فقال شأنكم. فأشفق عليه بعضهم فنهاهم، فأبى وقال: الموت أهون علي مما أنا فيه ! فأحموا له شفرة ثم قطعوها فيئس من نفسه.

قال: وسمع صخر أخته الخنساء تقول: كيف كان صبره؟ فقال صخر في ذلك:

أجارتنا إن الخطوب تنوب على الناس، كل المخطئين تصيب

فإن تسأليني هل صبرت فإني صبور على ريب الزمان صليب

كأني وقد أدنوا إلى شفارهم من الصبر دامي الصفحتين ركوب

أجارتنا لست الغداة بظاعن ولكن مقيم ما أقام عسيب[2]

فقالت الخنساء ترثيه:

ألا ما لعينك أم مالها لقد أخضل الدمع سر بالها

أبعد ابن عمرو من آل الرشي دحلت به الأرض أثقالها

فإن تك مرت أودت به فقد كان يكثر تقتالها

[1] ديوان الخنساء، المصدر السابق ، ص 08.

[2] عبد السلام الموفي، المصدر السابق ، 36.

فإن تصبر النفس تلق السرور وإن تجزع النفس أشقى لها

تعد الخنساء من الشاعرات العرب المعترف لهنّ بالتقدم وهي تعد من الطبقة الثانية من الشعر وأكثر شعرها في رثاء أخويها معاوية وصخر.

وكان معاوية أخاها من أبيها وأمها وأما عن صخر فقد كان أخوها من أبيها وكان أحب إليها من معاوية.

ونذكر سبب موت معاوية: قال أبو عبيدة: ذكر أن معاوية وافى عكاظ في موسم من مواسم العرب، فبينما هو يمشي سوق عكاظ إذ لقي أسماء المرتب، وكانت جميلة رغم أنها بغيا، فدعاها إلى نفسه فامتنعت عليه وقالت:

أما علمت أني سيد العرب هاشم بن حرملة؟ ! فقال: أما والله لأقار عنه عنك قالت: شأنك وشأنه. فرجعت إلى هاشم فأخبرته بما قال معاوية وما قالت له، فقال هاشم! فلعمري لا يديم أبياتنا حتى ننظر ما يكون من جهده قال: فلما خرج الشهر الحرام وتراجع الناس عن عكاظ، خرج معاوية بن عمرو غازيا يريد بني مرة وبني فرارة، في فرسان أصحابه من بني سليم، حتى إذا كان بمكان يدعى الجوزة – والشك من أني عبيدة – دومت عليه طير وسنح له ظبي، فتطير منهما ورجع في أصحابه، وبلغ ذلك هاشم بن حرملة فقال: ما منعه من الإقدام إلاّ الحين ! قال: فلما كانت السنة المقبلة غزاهم، حتى إذا كان في ذلك المكان سنح له ظبي وغراب فتطير ورجع، ومضى أصحابه وتخلف في تسعة عشرة فارسا منهم لا يريدون قتالا، وإنما تخلف عن عظم الجيش راجعا إلى بلاده فوردوا ماء وإذا عليه بيت تعر، فصاحوا بأهله فخرجت إليهم امرأة فقالوا: ما أنت ممن أنت[1]؟

قالت: امرأة من جهينة أحلاف لبني سهم بن مرة بن عظفان.

فوردوا الماء يسقون، فانسلت فأتى هاشم بن حرملة، فأخبرته أنهم غير بعيد، وعرفته عدتهم وقالت: لا أرى إلا معاوية في القوم فقال: بالكاع أمعاوية في تسعة عشر رجلا،

[1] ديوان الخنساء، المصدر السابق ، ص08.

شبهت أو أبطلت فقالت: بل قلت الحق، ولئن شئت لأصفنهم لك رجلا رجلا قال: هاتي.

قالت: رأيت فيهم شابا عظيم الجمة، جبهته قد خرجت من تحت مغفره، صبيح الوجه، عظيم البطن، على فرس غراء. قال نعم هذه صفعته. يعني معاوية وفرسه الشماء.

قالت: ورأيت رجلا شديد الأدمة شاعرا ينشدهم قال: دلك خفاف بن عمير.

قالت: ورأيت رجلا ليس يبرح وسطهم، إذا نادوه رفعوا أصواتهم: ذلك عباس الأصم.

قالت: ورأيت رجلا طويلا يكنونه أبا حبيب، ورأيتهم أشد شيء له توفيرا.

قال: ذلك نبيشة بن حبيب.

قالت ورأيت شبابا جميلا له وفرة حسنة. قال: عباس بن مرداس السلمي.

قالت: ورأيت شيخا له ضفيرتان فسمعته يقول لمعاوية: يأبي وأنت أطلت الوقوف !

قال: ذلك عبد العزى زوج الخنساء أخت معاوية.

قال: فنادى هاشم في قومه وخرج، وزعم المدي أنه لم يخرج إليهم إلا في مثل عدتهم من بني مرة. قال: فلم يشعر المسلمون حتى طلعوا عليهم، فثاروا إليهم فلقوهم فقال لهم خفاف: لا تنازلوهم رجلا رجلا، فإن خيلهم تثبت للطراد وتحمل ثقل السلاح، وخيلكم قد أمنها الغزو و أصابها الحفا.

قال: فاقتلوا ساعة وانفرد هاشم ودريد ابن حرملة المريان لمعاوية، فاستطرد له أحدهما فنشد عليه معاوية وشغله، و اغتره الآخر فطعنه فقتله واختلفوا أيهما استطرد له وأيهما قتله، وكانت بالذي استطرد له طعنة طعنة إياها معاوية، ويقال هو هاشم، وقال آخرون: بل دريد أخو هاشم[1].

[1] ديوان الخنساء، المصدر السابق، ص09.

مدى تأثر الخنساء بموت أخيها صخر:

لا تنتهي حادثة حتى تبدأ حادثة أخرى، وكأنما استعاص التاريخ بتلك الأحداث في حياتها عند الرصيد والتدوين، لنأخذ منها ما تطمئن إليه أفكارنا وما يتفق مع ما تصيغه نظراتها إلى عصرها وبيئتها وظروف حياتها المأساوية وذلك بمقتل أولادها الأربعة وأيضا مقتل أخويها معاوية وصخر فلم تتأثر الخنساء بموت أخاها معاوية كثيرا على موت أخيها صخر الذي تعزه وتكن له احتراما شديدا، وهذا ليس ببعيد عن موقف أخيها صخر من معاوية الذي حاول أن يكررها على الزواج بصديقه وريد، فلجأت إليه ليكون عونا لها تحقق به ما ترغب.

وتتغلب الخنساء على رغبة شقيقها وليس ببعيد عن ذلك الموقف موقفه منها حين أوقعها زوجها عبد العزي في ورطة مالية، فلم تجد غيره[1] ملجأ تسعى إليه.

. انهارت الخنساء بعدما تمالكت نفسها، وكانت موشكة أن تنهار في إثر مقتل معاوية لولا مساندة صخرها ومنعتها أخلاقها، ولكنها لم تجد سندا ولا مانعا بعد موت صخر، فلم تقدر على تمالك نفسها فقد مات عزها ومؤنسها وملجؤها وحاميها، وأقامت على أخيها صخر حيث تقول:

يذكرني طلوع الشمس صخرًا وأذكره لكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه باليأس

ورثته أيضا بمرثية أخرى:

وإن صخر لوالينا وسيدنا وإن صخرا إذا نشتو لنحار

وإن صخر لتأتم الهداه به كأنه علم في رأسه نار [2]

[1] د. يعد بوخلاقة، درايات في الآدب الجاهلي، منشورات جامعية، باجي مختار عنابة . 2006 . ص 111.

[2] . حمد طماس ، ديوتن الخنساء ، دار الأديب ، بيروت لبنان 2009. ص(109)

فجعلته الخنساء موضعا للسيادة ومعنيا بأمور العشيرة لقولها «لوالينا وسيدنا»

وجوادًا معضلا نحارًا في وقت ثم قالت « إن صخرا لتأتم

الهداة به»إذ جعلته إمام ثم جعلته عالم العالم كله، فلم تقتصر على ذلك حتى جعلته في رأسه نارًا، شهرته في الكرم نارًا على علم الهداية.

فالخنساء كانت تقول الأبيات اليسيرة، ولكن بعدما أصيب صخر جدّت وأجادت وجمعت نفسها وشهرت مما يستحسن من شعره.

إنني أرقت فبتُ اللّيل ساهرة كأنما كُحلت عيني بعوّار[1]

إذ جعلت الخنساء أخاها سيّدا وأكدت ذلك وزادت فيه وأوضحت بأن قالت:

طويل العماد عظيم الرّما وساد عشيرته أمردَا

إذا القوم حتدو بأيديهم إلى المجد ثم نما مصعدا

يكلفه القوم ما عالهم وإن كان أصغرهم مولدا

فقد كان صخر في حياته ملجأ الخنساء، يزيل عنها شكايتها ويمسح عليها ألامها وكان كذلك حتى بعده مماته خفّف عنها ما كبتت في نفسها من الأحزان وما اِبتلعت من قصص طالما أقلقتها وأفضت منها المضاجع، فلما مات صخر انفجرت باكية من غير إمساك[2].

التعريف بابن الرومي:

حياته ونشأته:

هو علي ابن العباس بن جريح، ويبدو أن أول من أسلم من آبائه أبوه القريب العباس، وقد نشأ على الولاء لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور العباسي، وكان يوناني

[1] . سعد بوفلاقة، المصدر السابق ، ص 110.111.

[2] حمد وطماس، المصدر السابق، ص 10.

الأصل كما يشهد بذلك اسم جده، ونراه في شعره ينسب نفسه إلى اليونان مرادًا وقد يسميهم الروم أحيانا من مثل قوله:

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجىً ومجد وعيدان صلاب المعاجم[1]

ولد ببغداد سنة 221 هـ . 835 م من أب رومي وأم فارسية.

يكنى أبا الحسن... تلقى دروسه على يدي محمد بن حبيب وبدأ يقرض الشعر في فترة مبكرة من حياته، وكان أشعر أهل زمانه بعد البحتري وأكثرهم شعرا وأبلغهم هجاءًا وأدقهم وصفا حتى لكأنه يرسم الصورة بالكلمات وبرع أشد ما يكون بالوصف الكاسيكاثيري المعتمد على الإيجاز والضربة القوية.

برع في المديح والهجاء، ويقال إنه ما برع في مدح أحد إلاّ وبرع في هجائه لذا كان الكبار من عليه القوم يهابونه ويخشونه أن يطالهم بلسانه وكان الشعر سبب موته.

كان في حياته حزينا حدّ التشاؤم، ويقال إنه كان سوداويا منطويا على نفسه يتحاشى الناس وكان متشائما، وقد رزئ بموت أولاده في حادثتهم ثم أصيب بموت زوجته وأخيه فعاش عيشة حزن وألم و تشائم...[2]

وله مقطوعة يصور فيها صلعه وقبح وجهه، ونراه يختمها بقوله:

شغفت بالخرّد الحسان وما يصلح وجهي إلا لذي ورع

كي يعبد اله في الفلاة ولا يشهد فيها مساجد الجمع

ويبدو أن أباه كان على شيء من اليسار، وحقا توفي في مطالع حياته، ولكن يظهر أنه ترك للأسرة ما يتيح لها على الأقل كفاف العيش. وكان له ابن آخر يسمى ابن الرومي في نحو الخمسين من عمره، على كل حال مكّن يسار هذه الأسرة لابن

[1] د شوقي ضيف، المصدر السابق، ص 06.

[2] عبد عون الروضان، المصدر السابق ، ص 20، 22.

الرومي أن يتجه إلى التعلم فالتحق ببعض الكتاتيب، وكانت تعني بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والحطب وشيئا من الحساب، فالتهم ذلك كله الصبي، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء في المساجد تارة يستمع إلى محمد بن حبيب الراوية المعروف أو إلى زميله ثعلب، وأخرى يستمع إلى بعض المحدّثين أو بعض الفقهاء أو بعض رواة التاريخ والأخبار.

وكانت دار الحكمة التي عنى بها الرشيد والمأمون مديدة وعينه، وكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاضا يقرأ ويستوعب و يستسيغ ويتمثّل تمثلا نادرًا[1]

وتكثر في أشعاره الإشارة إلى حكماء اليونان الأقدمين، كما تكثر أسماء الكواكب والنجوم. و مما لا ريب فيه أنه كان . كما مر بنا في غير هذا الموضع . يعتنق الاعتزال، ويذكر معاصروه أنه كان ضيق الصدر سريع التغير والانقلاب، و سنرى أثر ذلك في أشعاره إذ كان كثيرا ما يضيق ببعض ممدوحيه فينقلب هاجيا لهم، ويذكر معاصروه أيضا أن من كان يلقاه يراه كالمتوجس المذعور، وكأنما كان في أعصابه شيء من الاختلال، ولعل ذلك هو الذي أعدّه لأن يصبح أكبر شاعر متطيّر في عصره وكان إذا روجع في كثرة تطيّره احتج بقوله إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة، أفتراه كان يتفاءل بالشيء ولا يتطيّر من ضده ويقول إن عليّا لم يكن يغزو غزاةً والقمر في برج العقرب، وكان يزعم أن الطّيرة موجودة في الطباع قائمة فيها.

ويقصّ معاصروه عن طيرته أخبارًا كثيرة، من ذلك أنه أغلق باب داره ثلاثة أيام لما تصادف من أنه كان يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فيرى جارًا له أحدب كان نازلا بإزائه يقعد على الباب، وافتقده في مجلسه بعض الأمراء، وكان يعلم حاله من الطيرة، فأرسل له غلامًا يسمى إقبالا ليتفاءل به عند سماع اسمه، غير أنه لم يكد يعزم على المضى معه حتى بدا له اسمه معكوسا هكذا:

[1] شوقي ضيف ، المصدر السابق ، 297 .298.

لا بقاء، فقال له امض إلى سيدك وأنبأه بما في نفسه ! وأرسل له بعض الأصدقاء غلاما له يسمى حسنا، وكان حسن الوجه، طالبا إليه أن يزوده فخرج معه وإذا أمام داره دكان خياط درفتاه على هيئة اللام ألف، هكذا لا، وحانت منه التفاتة فرأى تحت الدرفتين نوى تمر، فتطير، وقال إن هذا يشير إلى أن لا تمر و رجع إلى داره ولم يذهب مع الغلام[1].

وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وهو لا يزال حدثا في الكتّاب، إذ تروى له أبيات حينئذ في هجاء غلام عباس يسمى جعفرا كان زميلا له، وكأن ذلك كان إرهاصا بأن الهجاء سيغلب عليه طوال حياته. وقد مضى يتخذ الشعر كله أنه حرفة يتكسب بها.

فهو يعرضه على عليه أهل بغداد، وكان طبيعيا أن يعرضه على كبار رجال الدولة وفي مقدمتهم أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد منذ سنة 238 وأسرة الطاهريين معروفة كان طاهرين الحسين قائدا للمأمون وهو الذي قضى على ثورة الأمين، وكان اِبنه عبد الله بن طاهر أميرا لخرسان وخلّفه عليها ابنه طاهر. وحاول ابن الرومي الزلفى إلى محمد بالمديح، ويبدوا أنه لم يكن يتسع في ثوابه ومكافأته، وكان على علم بالشعر، فأخذ ينقد بعض أشعار ابن الرومي، وعكاظ الشاعر الشاب نقده. بل لقد أخذ يحرمه نواله، مما جعل ابن الرومي يوجه إليه مثل قوله:

مدحت أبا العباس أطلب وفده فخيّبني من رفده وهجا شعرى[2]

ويبدو أنه كان بخيلا، وأن بخله كان السبب الحقيقي في انصرافه عن الشاعر متعللا بأنه لا يعجب بشعره، مما جعل ابن الرومي يصّب عليه سياطا حامية من الهجاء، وهو يعمم فلا يقف بهجائه له عنده وحده، بل يعم به أسرة الظاهريين جميعا من مثل قوله:

سلام وريحان وروحٌ ورحمة عليك وممدودٌ من الظّل سجسج

ويا أسفى أن لا يردّ تحية سوى أرج من طيبه نشرك يأرج

[1] كوفي ضيف ، المصدر السابق ، ص 298. 299.

[2] ابن الرومي المصدر السابق . ص 438. ص 396.

ألا إنما تاح الحمائم بعدما ثويت وكانت قبل ذلك تهزج[1]

ولا يبكيه وحده، بل يبكي العلويين جميعا منذ شهيدهم الحسين المقتول في كربلاء ويتفجع على قتله مصورًا جزاءه في علّيين، ويأسى أن يكون للعلويين دائما قتيل مضرج بالدماء دون خوف من الله وانتقامه ودون أي رعاية للرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته، ويتناول العباسيين في جرأة، ويتوعدهم أن يردّ الأمر إلى نصابه وأن يرجع الحق إلى أهله ، على يد علوى ثائر، يحطم العباسيين بجيشه الكثيف حطمًا، ويتوجه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بالخطاب متمنيا أن تزول دولته ودولة آل خرسان، ويعلن أنهم أعداء الرسول والإسلام جميعا.

وأن دولتهم لابد أن تدول وتُمحق محقا فينطفئ غليل الصدور وتبرأ القلوب الكليمة وعلى هذا النحو أصبح ابن الرومي يجاهر بتشيعه[2].

ثقافته:

تلقى ثقافته الأولى في بعض كتاتيب بغداد واستقامت له ثقافة واسعة النطاق أقوامها العلوم العربية من نحو ولغة وأدب، وبحلقات التدريس من المساجد، فحفظ ما تيسّر من القرآن الكريم ومن مختارات الشعر والخطب وتعلم أصول الحساب، كما استفاد ابن الرومي من مناظرات العلماء النحويين والفقهاء، كما اِطّلع على كتب المنطقيين والفلاسفة.

وفي شعره إشارات واضحة تثبت اطلاعه على مثل هذه العلوم[3].

[1] شوقي ضيف، المصدر السابق، ص 300.

[2] د شوقي ضيف، المصدر السابق، ص 300. 301.

[3] الاستاذ أحمد حسن سبيح، المصدر السابق، ص 8.

طيرته:

لعل ظروف حياته المعقدة وتلاحق الأزمات، والوفيات وفاة والده ووالدته وأخوه ثم أبناؤه، كل ذلك ترك في نفسه آثار سيئة، لم يستطع عليها صبرا، ومما زاد في تأثره وانفعاله ظلم الناس له، وتخلي الأصدقاء عنه، فتشاءم من كل شيء وصار ضيق الصدر سريع الإنفعال وانعكس ذلك على شعره، إذ يمدح اليوم ويهجو ممدوحه غدًا، وفي الأخبار التي ينقلها معاصروه ما يثير الدهشة لشدة تطيّره وكأن خللا عقليا كان ينتابه، من ذلك أنه كان يتشاءم ن بعض الأسماء فإذا قيل ته جارك مرّة أغلق بابه على نفسه ولم يخرج.

ومما كان يتطيّر من ركوب البحر حتى غدا يتشاءم من الماء عموما يقول:

لقيت من البر التباريج بعدما لقيت من البحر ابيضاض الذوائب

ولكن البعض من المؤرخين والرواة بالغوا فيوصف طيرته، ولا أظن أنه كان كما وصفه، خصوصا في تطيره من الماء، فهو عند ذكر أهوال البحر ومثله تهديد الفان بالسقوط لم يكن على وجه التطير بقدر ما كان يريد أن يصور مدى بؤسه وشقائه لاستدرار عطف الممدوح[1].

شاعريته:

تفتحت قريته الشعرية وهو حدث، وتروى له أبيات مبكرة قالها في هجاء غلام يقال له جعفر وفي شبابه اتخذ من الشعر سلعة يبيعها وحرفة يتكسب بها، على طريقة شعراء عصره فعرض شعره على القواد والوزراء والأمراء ولم يثبت أنه اتصل بالخلفاء، وممن اتصل بهم ومدحهم: محمد بن عبد الله بن طاهر وعلى هذا النحو أصبح ابن الرومي يجاهر بتشيعه، ولعل هذا الجانب فيه هو السبب الحقيقي في أنه لم يحاول المثول بين يدي الحلفاء مادحا. لأنه لم يكن يتجاوز عتبة الوزراء[2].

[1] الأستاذ أحمد حسن بسيح ، ديوان ابن الرومي، ج 1، دار الكتب العلمية. الطبعة الثالثة ص 98.

[2] شوقي ضيف، المصدر السابق ، ص 301.

ونمضي مع ابن الرومي بعد مرثيته الشيعية الآنفة الذكر، فنجده يقف مع عامة بغداد لسنة 251 حين لجأ إليها الخليفة المستعين ووقعت الحرب بينه . ومعه أهل بغداد . وبين المعتز الذي بايعه الترك والجند في سامراء وينظم محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عامة بغداد، ويحارب معهم جند المعتز، وتصفو العلاقة حينئذ بين ابن الرومي ومحمد بن عبد الله ابن طاهر وبدا في نهاية الأمر رجحان كفة جند المعتز، فنجح ابن طاهر إلى الصلح وخلع المستعين، وانتهت الأمور بعزله ثم قتله في سنة 252. ويغضب ابن الرومي ولكن كأنما ذلك كلن سبحانه عارضه، فتظل صلته بابن طاهر وثيقة، على نحو ما يتضح من دالية له يرثيه بها حين توفي سنة 253 افتتحها بقوله[1]:

إن المنية لا تُبقى على أحد ولا تهاب أخًا عزّ و لا حشد

مدى تأثر ابن الرومي بموت ولده الأوسط:

ومن شأن من كان يمثل إقبال ابن الرومي على الحياة من شأنه بكاء الحياة والإحساس بفقده. بل من المنطق له أن يصف المشيب كما وصفه ابن الرومي بأن كارثة الإنسان الأساسية في الحياة باعتباره باب النهاية، وقد وقف وقفة خاصة مميزة عند موت أوسط أولاده ورثاه رثاء مفجع وكأنه رأى في موت أوسط الصبية معنى من معاني عبئ الحياة أو دليل على هذا العبء فقد ابن لم يكن صغيرا مغمور الملامح كما لم يكن كبيرا قد حقق حكمه، ولديه فذاقوا من ثماره كان الأوسط البين وهي ذات المنطقة التي تعطلت فيها قوى ابن الرومي، وتصدت له الحياة بالإعاقة إذا أعطته حبها والرغبة فيها ثم أغرقت عليه من الحرمان، فلا هو مشبع ولا هو عاطل من الرغبة يقول ابن الرومي راميا ولده مقتوت من هذا المعنى.

توفي حمام الموت أوسط صبيائي فالله يكف أختار وسيطة العقد

ويبث ابن الرومي في ذات القصيدة إحساسه بامتزاج العدم والوجود في إناء واحد. حيث يكرر في كثير من الأبيات التي يصف فيها تاريخه من ذلك الصبي وكأنه

[1] أحمد بسيح المصدر السابق ص 09.

يتشكل في حدوث الفقد وكأنه يعاني اختلاط الماضي بالحاضر أو كأنه يعاني الذهول من عجزه عند استعداده المائت[1].

[1] كاميليا عبد الفتاح ، الشعر العربي القديم ، دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية 2007.6200. 63.

دراسة خصائص شعر الرثاء عند الخنساء:

يتسم شعر الخنساء بالتكرار وهي سمة سائدة في شعرها وهو يتجاوز وظيفته الشكلية والإيقاعية الموسيقية إلى المحتوى الشعري حيث يمثل وسيلة من وسائل الأداء المهمة التي شكلت بها الخنساء تجربتها الشعرية ويمكن أن نعرض نموذجا يعبر عن الظاهرة:

يا عين مالك لا تبكين تسكابا إذا راب دهرٌ وكان الدهر ريّابًا

فأبكي أخاك لأيتام وأرملة وأبكي أخاك إذا جاوزت أجنابا

وأبكي أخاك لخيل كالقطا عصُب فقدن لما ثورى سبا وأنهابا

يعدو به سابح نهدٌ مر كله مجلبٌ بسواد الليل جلبابا

حتى يصبح أقواما ما يحاربهم أو يسلموا دون صيف القوم أسلابا

فالأبيات مبنية على أنماط متنوعة من التكرار، فمن تكرار الحروف نجد أن حرف الباء و هو الروي يتكرر في كل الأبيات بصورة متفاوتة، كما نجد تكرار الكاف والخاء والجيم، وهناك تماثل صوتي بين تبكين و تسكابا وبين الكلمات سببا . سابح . بسواد، ثسلبوا . أسلابا.

والتكرار اللفظي كما يلي: «راب . ريابا»، «أبكي أخاك، أبك أخاك»

مجلب، جلبابا، يسلموا، أسلاما، فهذا النمط من التكرار يمثل ظاهرة سائدة في كل قصائد الخنساء.

. كما يوجد أيضا تكرار الأساليب والتراكيب اللغوية في قصائد الخنساء، ومن شواهد تكرار والنفي قولها:

لا يأخذ الخسق في قوم فيغضبهم و لاتراه إذا ما قام محدودًا[1]

ومن شواهد تكرار الفعل:

[1] حسيني عبد الجليل يوسف، المصدر السابق، ص 63، 64.

إن كنت عن وحدك لم تقصر أو كنت في الأسوة لم تعذر

كما نجد أيضا الاستفهام فيشعر الخنساء فهذا سائدًا في الشعر الجاهلي وخاصة في قصائد الرثاء.

لطراد الخيل إذا وزعت وللمطايا إذا يشددن بالكور.

فالاستفهام نمط يعبر عن أهمية المفقود حيث يتضمن استبعاد لأن يكون هناك مقامه أو يفعل أفعاله، ويمثل تكرار الأسلوب إلى جانب وظيفته الإيقاعية في الشكل تفصيلا لدور المرثي، وتفسيرا وتعليلا لاهتمام الشاعرة به وحزنها عليه[1]

النزعة العاطفية عند الخنساء:

فالخنساء كما سماها الشعراء الجاهليون بأنها شاعرة البكاء فهي سريعة التأثر، وقد يربط الدارسون بين تميز الشعر عند الخنساء واندفاعها وراء عاطفتها وأحزانها.

وقد يرون أن هذه الفورة الانفعالية فقد حالت الشعر إلى تغيير مباشر عن الذات وغلى تداعيات عاطفية لا شعورية، يلاحظ أن ذلك الاندفاع العاطفي لم يجعل شعرها مجرد تداعيات، بل كان الانفعال والعاطفة محكومين لعملية الإبداع الفني إلى درجة يشعر معها القارئ بالقصد إلى تحسين العمل وتثقيفه.

ففي بعض النصوص نجد نوعا من التأثر بالنصوص ليست في الرثاء بل في موضع تشترك مع الرثاء في معاناته الهموم.

مثل قول:

يا عيد مالك من شوق وإسراق ومرّ طيف على الأهوال طراق

وقول الخنساء:

يا عين جودي بدمع منك مهراق إذا هدى الناس أو همّوا بإطراق.

[1] حسيني عبد الجليل يوسف، المصدر السابق، ص 10.

فالعيد هو ما اعتداه من حزن وأشواق وهو يقابل العين عند الخنساء تلك التي اعتادت الحزن و البكاء[1].

وبمراجعة متأنية لهذه المراثي التي أبدعتها عبقرية الشاعرة الصادقة يتبين لنا أنها كانت دوما تستهل قصائدها بالبكاء، ثم تسارع إلى تعداد مناقب الفقيد.

وتعليقا على ذلك يقول الدكتور فؤاد أفرام البستاني.

«إن شعر الخنساء هو أصدق ما وصل إلينا من الشعر العربي في نوعه، وأخلصه عاطفة في التعبير عن الحزن العميق الدافع بصاحبه إلى طلب الثأر حينا وإلى اليأس المفجع أحيانا».

وكما يرى أن شعر الخنساء في الفترة القريبة من موت شقيقها صخر غلب عليه طوابع النواح، وبدت فيه الشاعرة حزينة مترنحة لهول ما أصابها.

وكادت قصائدها أن تكون شكلا من أشكال الندب والعويل تتكرر فيها الألفاظ والمعاني وكما في ذكر المآثر بروح متعالية تذوب عاطفة واقعية[2].

الصورة الفنية في شعر الخنساء:

الصورة الشعرية الفنية هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والكلمات في النص الشعري، والتي تعبر في الوقت ذاته عن تجربة ذاتية خاضها الشاعر وتهدف إلى قيمة وهي دفع المتلقي إلى تكامل في واقعه من خلال الرؤية الشعرية.

أما بمفهوم التقليدي يتمثل في الأشكال في الأشكال البلاغية التالية (التشبيه، الاستعارة الكناية)

[1] حسيني عبد الجليل يوسف، المصدر السابق، ص 23.

[2] . د. قصي الحسين، الشعر الجاهلي وشعرائه، منشورات المكتبة الحديثة، طربلس، لبنان. ص 638634.

وملاحظ أن الخنساء اتخذت الصور البلاغية من أجل إبراز المعاني وتوضيحها وتقديمها إلى المستمع، أو لتأكيد هذه المعاني والأفكار المتمثلة في الألم الشديد أو العذاب الموجود في الخنساء [1]

وأما عن البديع إذا تأملنا علاقته بتجربة الحزن عند الخنساء نجد أن تجربة الحزن عندها تجربة شعرية في المقام الأول والشعر الذي نتحدث عنه هو شعر غنائي، إذا فهي تجربة غنائية والخنساء عندما لجأت إلى عالم الشعر لتصوغ في إطاره مشاعرها اِختارت تقنيات بديعية جعلتها منطلقا لتشكيلها الشعري، وفن الرثاء عندها فن بديعي وهو ينتقل من مستوى سجع المكان والغناء الشعبي إلى مستوى أكثر رقيا ونضجا، ومن خلال تجربتها الشعرية جمعت بين جمال المعنى والمبنى وبين إصابة الشكل والمحتوى، وبين تلقائية التجربة وهندسة الصياغة.

فالخنساء قد وعت تقنيات البديع التي تضمنتها النصوص الشعرية السابقة عليها والمعاصرة لها، وهي حين توسعت وسائل الأداء والأنماط الشعرية منحت إبداعها فصلا تستند إليه وتنطلق منه[2]، وإذا كانت الخنساء قد ارتبطت بالنصوص الشعرية التي تبنتها فإنها من جانب آخر قد قدمت أعمال تتميز عنها من حيث القصيدة ومن حيث وسائل الأداء الفني التي برز فيها المستوى البديعي بصورة واضحة.

وقد أودعت الخنساء مراثيها كل ما وصلت إليه من فنون البديع بصورة لم تسبق إليها وانتقلت من بديع البيت الواحد إلى البديع المتراكب الذي يستغرق مجموعة من الأبيات أو القصيدة بأكملها.

بحيث لم تتكلف بالبديع لهذا نستطيع أن نقول البديع عند الخنساء هو بديع الطبع، فمن المحسنات البديعية التي استخدمتها في شعرها نجد الطباق أو التضاد والمقابلة وأيضا التشبيه أو الوصف.

[1] . منذر ذيب كفافي ، الشعر الجاهلي المختارات الشعرية، عالم الكتب الحديث، الأردن. ص 252.

[2] حسيني عبد الجليل يوسف، المصدر السابق، ص 109.117.

1. الطباق: ونأخذ شاهد من الشواهد التي استعملتها:

من الحزم في العزائم والجود والندى لدى ملكه عند السيارة والعسر

استخدمت الخنساء هنا بين الحزم والجود والعزاء والندى و السيادة والعسر وهي مقابلة تحقق ما تهدف إليه الشاعرة من إبراز ما يتصف به عطاء أخيها من ساعة وعموم وشمول وهو ضرب من حسن التقسيم واستغلال لكل الأقسام التي يمكن أن تصلها عطايا صخر.

2. المقابلة: وفي محاولتها لبناء نموذج الرجل الكامل لأخيها نجدها تعتمد على المقابلة.

ومن لجالس منحن لخالييه عليه يجهل جاهدًا يتادع

ولو كان حيا كان أطفأ جهله بحملك في رفق وحملك أوسع

وكنت إذا ما خفت إرادة عسرة أظلُ لها من خيفة أتقنع

دعوت لها صخر الندى فوجدته لها يسرًا يجلي به العسر أجمع

وصخر يمثل الحلم واليسر في مواجهة الجهر والسر، أو هو يمثل الإيجاب في مقابل السلب والأمن في مواجهة الخوف.

فقد جمعت الخنساء بين أنواع البديع على هذا النحو:

جالس جالسه ← تكرار صوتي.

جهد جاهدًا ← تكرار صوتي.

حلمك أوسع ← إيحال.

يسر عسر ← طباق.

وتطبق الخنساء إلى ذلك تصويرا بيانيا باستخدامها الكتابة في هذه الأبيات بقولها: إطفاء جهله بحلمه وأيضا صخر الندى.

فصور المطابقة والمقابلة في الشعر الجاهلي كثيرة ولكون الخنساء شاعرة جاهلية عاشت مع الشعراء الجاهليين استخدمت في كذلك المطابقة والمقابلة بشكل كبير في شعرها، وهذه المطابقة والمقابلة هي تشكيل لغوي يمثل لتلك الثنائية تنظم موقف الإنسان من المجتمع الوجودي[1].

بالإضافة إلى ذلك فقد شاع في أشعارها التكرار حيث نجد مطالع القصائد تتشابه بقوة وتتكرر، وربما لم تكن تختلف بأكثر من لفظ يستبدله الشاعر بآخر لضرورة النظم وإلحاح القافية[2].

فالتكرار ظاهرة أسلوبية وجدت في الشعر الجاهلي، وهذه المحاولة تعتمد من خلالها إلى بيان هذا الجانب ودوره الموسيقي في قصائد الخنساء ويعد القراءة المتأنية في شعرها في هذه القصائد يتبين أن التكرار يكون مع ثلاثة أنماط وهي:

الأول: تكرار الحرف يعينها في البيت الشعري.

الثاني: تكرار كلمات معينة أو كلمات ذات وزن صرفي واحد.

الثالث: تكرار صيغ معينة أو أشطر شعرية، أو أبيات شعرية كاملة[3].

و كما أن الخنساء تكشف لنا الجمال الفني في بيتها هذا:

أمن ذكر صخر ماء عينك يسجد بدمع حثيث كالجمال المنظم.

ولا شك أن حرف الروي تختلف في السطر الأول عن حركته في القافية واللافت أن صخرًا هو المعادل للطلل عند الشاعرة.

ويتميز مطلع الخنساء من حيث المحتوى بما قدمت من وصف جمالي للدموع حيث تشبهها بالجمال المنظم. أي بعقد من الفضة انتظمت حياته وهذا يكشف عن اهتمام بإبراز مظاهر الجمال الفني حتى لتلك الدموع التي تنساب من العين، وقد يبدوا أن هذا الوصف لا

[1]. عبد الجليل يوسف ، المصدر السابق، ص 117،118.

[2]. د. قصي الحسين، شعر الجاهلية وشعرؤها، منشورات المكتبة، طرابلس لبنان ، الطبعة الأولى ، 2006.ص 437.

[3] منذر ديب كفافي، المصدر السابق ، ص 272.

يتناسب مع التجربة ولكنه يكشف في نفس الوقت عن التجربة الشعرية عند الخنساء كانت تجربة فنية بالدرجة الأولى، وأن الخنساء كانت توفر للموضوع عناصره الفنية إلى جانب عناصره الموضوعية[1].

موضوعات وأغراض الرثاء عند ابن الرومي:

كان ابن الرومي يجيد فن الرثاء، بحكم قدرته على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر وأيضا فإنه كان يستشعر في أعماقه حزنا ممضّا، لأنه لا يأخذ حقوقه في عصره بالقياس إلى غيره من الشعراء الذين يتفوق عليهم تفوقا واضحا، فكان شعوره بالبؤس والحرمان يضاعف حزنه، وكأنما الحياة كلها أمامه كانت أحزانا ومآتم وتصادف أن مات له ثلاثة أبناء فبكاهم بكاءً حارا، ومرّ بنا في الفصل الماضي بكاؤه على ابنه الأوسط الذي مات منزوفا وهو لا يزال في المهد طفلا صبيّا، وقد نصب بقصيدته له مأتما كبيرا صوّر فيه موته ونزيفه تصويرًا محزنا ثم بكاءً مرًا[2].

ومن قوله في رثاء ابنه الأوسط:

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي فجودا فقد أودى نظيركما عندي

توخّ حمام الموت أوسط صبيتي فالله كيف اختار واسطة العقد

ألحّ عليه النزف حتى أحالـه إلى صفرة الجادّي من حمرة الورد

وأولادنا مثل الجوارح أيهـا فقدناه كان الفاجع البين الفقـد

لكلّ مكان لا يسدُّ اختلالـه مكان أخيه في جزوع ولا جلـد

هل العين بعد السمع لكفي مكانه أما السمع بعد العين يهدي كما تهدي[3]

[1] . حسني عبد الجليل يوسف، المصدر السابق، ص 10.

[2]. ابن الرومي، المصدر السابق ، ص 31.

[3] . عبد عون الروضات، المصدر السابق، ص 25.21.

وكان ما بيني ينفذ إلى أخلية دمعان طريقة حتى في الموت، ولعله أول من حبّب الموت إلى غيره، وكأنما كان يراه خلاصا من حياته ومن الناس والأصدقاء الذين لا ينصفونه مما جعله يقول:

قد قلت إذا مدحوا الحياة فأكثروا للموت ألف فضيلة لا تعرف

فيه أمان لقائه بلقائــه وفراق كل معاشر لا ينصفْ

وتعبيره عن أن الموت أمان للإنسان من خوفه المروّع بلقائه من أدق ما يمكن وهي لا يبازي في النقود إلى كثير من المعاني والأحاسيس الدقيقة[1].

وله قصيدة في رثاء ابنه الثالث

اِبني إنك والعزاء معًـا بالأمس لُفّ عليكما كفنُ

ما في النهار وقد فقدتك من أنس ولا في الليل لي سكن

ما أصبحت دنياي لي وطنا بل حيث دارك عندي الوطن[2]

فسبب موت ابنه الأوسط الذي تأثر عليه كثيرا أكثر من أولاده الآخرين و أيضا زوجته ولقد جعل رؤيته المتشائمة حتى حتمية الموت وهذه الحتمية تؤلم ابن الرومي.

ولم يكتف ابن الرومي برثاء أولاده وزوجته وإنما معروف أيضا برثائه على المدن وهذا ذكره عندما خربت البصرة على يد الزنج في ثورتهم العارمة على المتوكل، فرثى البصرة بقصيدة من أجمل ما قيل في رثاء المدن واشتهر بتوليد المعاني وكان لا يترك المعنى إلاّ بعد أن يستوفيه ويمثله للمتلقي تمثيلا.ومن هنا جاءت مقولاته الشعرية التي ترجوا الواحدة منها على ثلاثة مئة بيت وهو القائل في المعنى ذاته: رثاء المدن.[3]

[1] . شوقي ضيف، المصدر السابق ، ص 205.

[2] ابن الرومي ، المصدر السابق ، ص 31.

[3]. عبد عون الروضان ، المصدر السابق، ص 21. 25.

بلدٌ صحبتُ به الشبيبة والصبا ولبست ثوبْ العيش وهو جديد

فإذا تمثل في الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب يمتد

الصورة الفنية عند ابن الرومي:

يعتبر الصورة نقطة مركزية في الخطاب الشعري، فهي تمثل البعد الجمالي البنيوي والوصف لعالم كله سحر وفتنة. والصورة طريقة في الكلام، قائمة على علاقة المشابهة كما هو الحال في الاستعارة أو علاقة المجاورة كما هو الحال في الكناية فهاتين النقطتين هما اللّتان ركز عليهما ابن الرومي في شعره، بحيث ركز كثيرا عل أقدم وسائل الخيال وأقربها إلى الفهم وهو:

1. التشبيه: يمتاز ابن الرومي بدقة الوصف متناهية يلمح براءته وقوة شاعريته، فإذا وصف لك صور ما يصف حتى تراها أمامك في تمثال من الصور و التعابير[1]، قوله في وصف «وحيد المغنية» التي أنسجته بصورها وقيمته بحبها قال يصفها:

يا خليلي، يتمكن وحيد ففؤادي بها معنى عميد

غادة ذاتها من الغصن قدمٌ ومن الظبي مقلتان وحيد

وذهاها من فرعها ومن الخدّ بين ذاك السّواد والتوريد

فهي بردٌ بحبها وسـلام وهي للعاشقين جهد جهيد[2]

فهذه القصيدة هي من أروع القصائد قال فيها الوصف والتشبيه، فهو طويل النفس في قصائده، بحيث يقوم باستقصاء المعاني وتحليلها وتعليلها، وسوّق الأدلة والبراهين العقلية المؤيدة لوجهة نظره فكلمة "تيمتني" تعني له معاني كثيرة بمعنى استولى على حبها بمعنى أتعبه حبها، أما العميد فيعني أضناه العشق والفزع هو الشعر المتفرع بجدائل، أي أن شعرها أسود و خديها أحمران، يشبهان الورد.

[1] . ابن الرومي، المصدر السابق ص954.

[2] . عصام الدين عبد السلام أبو زلال ، المصدر السابق، ص89.

الذي أراده على النحو الذي نحاه، فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها، وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ولو فسد في سبيل ذلك اللفظ والفصاحة، ولا ريب أن هذا الاستقصاء كان سببا من أسباب الإطالة ولكنه لم يكن كل السبب، لأن ابن الرومي كان يطيل القصائد حفاوة بالممدوحين وإكبارا لشأنهم و إظهارا لعنايته بإرضائهم[1].

فابن الرومي يطيل وبعبارة أخرى يستقصي المعاني والأفكار، على أن السبب الآخر الذي ذكره العقاد وهو المديح لا يطرد في جميع قصائد ابن الرومي لأنها لم تبنى كلها على المديح.

وأكبر الظن أن السبب الأهم هو ما قلناه من أن ابن الرومي كان يستخدم الصياغة المنطقية في قصائده، فشغف بهذا الطول الذي هو من أخص صفات من يريدون التعبير المنطقي الواضح. ومهما يكن فإن ثقافة ابن الرومي قد أحدثت في شعره هذا النوع الغريب من الطول في نماذجه، فإن الشعر عنده لم يعد تعبير العاطفة فقط، بل أصبح تعبير العقل قبل أن يكون تعبير العاطفة، وبذلك عمّه غير قليل من التحليل والتفصيل، والبحث والتحقيق.

لم يعد الشعر عملا عاطفيا خالصا، بل أصبح في كثير من جوانبه. كما تصوّره قصائد ابن الرومي عملا عقليا له خصائص الأعمال العقلية وصفاتها[2].

فهذه المقطوعة استعمل ابن الرومي حيلة جديدة، وهو أنه وضع وحيد في وصف الصوت الحسن عند شخص محبوب أما بقية القصيدة، فترى الشاعر يصف وهو ولهان ملتهب العاطفة فيضطرب بين الصوت وصاحبه وينتقل من نفسه إلى الصوت وإلى صاحب الصوت في ثورة عاطفية واقفة وهي تحليل عميق ودقة رائعة.[3]

[1] . محمد ربيع، المصدر السابق، ص61.

[2] . شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف الطبعة الثانية عشر ص207.

[3] . عصام الدين، المصدر السابق، ص 59.

2. الكناية:

كما استعمل ابن الرومي الكناية في شعره وركز عليه واستعملها في مختلف أغراض شعره، فهي تساهم في نسج العبارات وعذوبتها، فهذه الكتابة نجدها في قوله:

معبد في الغناء وابن سريج نحمتُ وهي في الضرب زلزال

عيبها أنها إذا غنت الأحـ رار ظلوا وهم لديها عيبه

فالمعنى الظاهري والمباشر للكناية أن "وحيد" جميلة وحسناء، لكن المعنى الأصلي هو أنه وصفها وصفا دقيقا وساحرا، ولكن يوجد شيء سحري وراء هذا الوصف، وإذا نراه على تصوير الإحساس بها وهو لم يقتصر على حسنها فقط، بل تعدى كذلك صوتها الجميل ثم يقول بأن الشمس والقمر يستندان من نورها إذا اِعتبرها مصدر النور فهذا يعتبر مصدر قمة الوصف، وكذلك من شدة جمالها تسكن ذاكرة كل من يراها.

إن الأحرار يصبحون عندها عبيدا، ليس بالأجسام فقط ولكن بالقلوب فابن الرومي أقام لحسنها مملكة، كما أقام لصوتها مهرجانًا ثم جعلها "مهرجا" شمس لهذا المهرجان[1].

3. الإستعارة:

نجد أيضا الاستعارة في شعر ابن الرومي بحيث نأحذ نموذجا أو مثالا عن ذلك في قوله:

صرت قطعا من الظلم للأفق بعدما كنت بدره ونجومه[2]

في هذا البيت تحصر ابن الرومي على ما آلت إليه تلك المدينة بحيث شبهها بقطع الظلام.

وهنا يقصد الزنوج الذين اقتحموا المدينة والتي كانت من قبل تعج بأناس خيرين تملؤه الفرحة والبهجة المرسومة على وجوههم.

ومن نستنتج أن ابن الرومي ركز على علم البيان على عكس الخنساء التي ركزت على كثيرا في شعرها على علم البديع

[1] . محمد ربيع ، علوم البلاغة ، دار الفكر ، الأردن ط1 2007 . ص 105.

[2] . عصام الدين عبد السلام أبو زلال، المصدر السابق ، ص 104.

وليس من ريب في أن هذا المزاج المعتل الحاد كان يؤثر في شعره بجانب أصله وثقافته، وطبيعي وقد امتلأ حقدا على معاصريه من الحرب وأشباهه، فكلهم أحدب في رأيه، أن يكون الهجاء أهم موضوعات شعره وكانت لديه قدرة بارعة على تصوير الأحاسيس فصور الطبيعة ومباهجها في الربيع وغير الربيع تصويرا رائعا، كما صوّر الأطعمة تصويرا يتناسب مع شرهه لها، وكان لا يترك منظرا في الطريق من مناظرها دون أن يرسمه بريشته على نحو على ما صنع في تصويره لمنظر الخباز وهو يدحوا الرقاق.

وتتضح في غزله العاطفة الرقيقة وهو يبدع في كثير منه إبداعًا منقطع النظير وله قصيدة طويلة وصف في مطلعها المرأة بطريقة مبتكرة، إذ نقل في وصفها صورة البستان بفواكهه وثماره ومطلعها:

أجنت لك الوجدُ أغصان وكثبان فيهنَّ نوعان: تفاح ورمان[1]

وتتجمع عاطفته و براعته في التصوير حين يصف بعض المغنيات، وقصيدته في وحيد المغنية إحدى درره. وطبيعي والقدر يلاحقه في خطف أبنائه ويجرعه غصص الألم أن يجيد في فن الرثاء، ومرثيته لابنه محمد من فرائد الشعر العربي، وله في رثاء البصرة حين غلب الزنج عليها وفتكوا بنسائها وأطفالها قصيدة بديعة[2].

وهو بحق من أوائل من نظم في المناظرات الشعرية كما في مناظراته بين النرجس الورد، والقلم والسيف. وكان ينظم في مدح الشيء وذمه فيمدح الحقد في قصيدة ويذمه في أخرى، ولعله في ذلك كان يتأثر بالأدب الفارسي. وفي شعره نزعة شعبية واضحة، إذا كان يصف المطاعم وحياة الناس في بغداد وما يطعمونه ويلبسونه حتى الأردية المرقعة ويعرض علينا صور طبقاتهم الدنيا من خبازين وحمالين وشوائين وشحاذين.

ومن هنا كانت تكثر في شعره ألفاظ العامة، فهو ليس شاعر الملوك والقصور من مثل البحتري وإنما هو شاعر شعبي، يعرض علينا بغداد في حياتها المتواضعة وصورها الشعبية.

[1] . شوقي ضيف، المصدر السابق، ص203.

[2] . ابن الرومي، المصدر السابق، ص354.

و كل ذلك من آثار حياته التي عاشها، فهي حياة بائسة في أكثر جوانبها. حياة لا تعرف البهجة ولا التأنق في المعاش، ولعل ذلك ما جعله يقف بشعره عند ذوق الصانعين، فهو لا ينمّق فيه، بل يترك نفسه على سجيتها ليصور أحاسيسه وعواطفه الصادقة. وكان فكره الدقيق وما نطبع في عقله من طوابع الثقافة والفلسفة حريًّا به أن يصبح من أصحاب مذهب التصنيع، ومن ينظر إلى هذا الجانب عنده يخيل إليه كأنه من طراز أبي تمام، وخاصة حين يقرأ له بعض أبيات مفردة أو قطعا قصيرة مما تناقلته عنه كتب الأدب، ويكن من يقرأ قصائده يعرف أنه ليس من أصحاب هذا المذهب مذهب التضيع إذ لم يكن يعنى بالزخرف لا في شعره ولا في حياته إلا قليلا، وكأنه كان يأتي به من الزخرف أحيانا مجاراة للعصر وحقّا شغف شغفا شديدا بالتصوير[1].

كما كان لبن الرومي يعتمد في شعره على الثقافة الحديثة وخاصة المنطق، كان يعتمد على فن مهم هم فن التصوير إذ كانت لديه قدرة غريبة على ملاحظة دقائق الأشياء وتصويرها تصويرًا بارعا، واستعان في ذلك بأداتين وجدهما عند أبي تمام وهما: التشخيص والتجسيم.

أما التشخيص فقد استخدمه استخدامًا واسعا في شعر الطبيعة، إذ كان يحسُّ كما يقول العقاد . بأن الطبيعة ذات ناطقة وأشخاص متحركة فهو يعيش مع كل نسمة فيها وكل حركة وكل خفقة وكل همسة، وكأنها تستغويه و تستهويه.

ورياضٍ تخايل الأرض فيها خيلاء الفتاة في الأبراد

منظر معجب، تحية أنف ريحها ريح طيب الأولاد

فهي تدلّ عليه إدلال الفتاة الحسناء، وهو يحنّ إليها حنانا غريبا، يحس فيه برائحة ذكية، رائحة الأولاد النجباء وما يشعر به الأباء نحوهم من عطف وحنّو ومحبة بل إنما لتتصباه إذ تتبرج له:

[1] . شوقي ضيف ، المصدر السابق، ص204.

تبرّجت بعد حياء وحفز تبرج الأنثى تصدّت للذّكر

وهذه الطبيعة المتبرجة مكث ابن الرومي يجري لاهثا ورائها، وقد ملكت عليه حواسه، وملأت عليه قلبه فهو مفتون بها، يفكر خلالها، ويغرق بصرهُ في ألوانها، ويغمد أشعاره بآثار لمسها وشمّها، وكأنه لا يعيش في حدود نفسه، وإنما يعيش فيما حوله من الطبيعة الفاتنة. وهو جانب رائع في شعر ابن الرومي يجعلنا نذكر شعراء الطبيعة عند الغربيين، ونقصد شعراء الحركة الرومانسية من أمثال وردزورث في إنجلترا ولا مارتين في فرنسا، إذ نجد الشعراء يهرعون إلى الطبيعة وواقع حياتهم يصفونها منحرفين عن المدرسة الكلاسيكية التي عمت في القرنين: السابع عشر والثامن عشر والتي كانت تتقيد بالأوضاع اليونانية واللاتينية، وقلما عدلت إلى شعر الطبيعة[1].

وكذلك كان العباسيون قبل ابن الرومي يتأثرون بالقديم وقلما يلجئون إلى تصوير الطبيعة التي عاشوا فيها، وقد أقبل ابن الرومي يصورها تصوير العاشق المفتون على نمط يشبه من بعض الوجوه عمل أصحاب الحركة الرومانسية في أوربا، وقرن العقاد . مع شيء من الاحتياط، هذا الجانب في شعر ابن الرومي بيونانيته. وإذا رجعنا إلى حقائق الظاهرة في الشعر العربي الحديث وجدنا شعر الطبيعة يشيع عند الغربيين في الأوقات التي لا يتشبثون فيها بالأوضاع اليونانية والتقاليد القديمة. ونحن لا ننكر أنه وجد طرفٌ من شعر الطبيعة حينئذ يشبه قناة ضيقة محصورة قد غصّت بأعشاب كثيرة من الأوضاع اليونانية واللاتينية، فلما جاء القرن التاسع عشر فاضت القناة، واتسع المجرى، وكانت تفقد الصلة بين شعر الطبيعة القديم والجديد.

وكما كان ابن الرومي صاحب شعر الطبيعة في القرن الثالث كان ينزل بأسلوبه إلى درجة دانية من الأساليب اليومية حتى ليحس الإنسان عنده بضروب من الإسفاف، وكان هو نفسه يعرف ذلك فقال يصف شعره، وقد عابه بعض من عاصروه:

قولا لمن عاب شعر مادحه أما ترى كيف رُكّب الشجر

[1] . شوقي ضيف، المصدر السابق، ص 208.

ركّب فيه اللحاء والخشب الـ يابس والشوك بينه الثمر[1]

فشعره فيه اللحاء وفيه الخشب، وفيه الورد وفيه الشوك، فيه المتين المصقول وغير المتين المصقول. وهذا هو ما يدفع ابن الرومي عن مدرسة المصنعين فقد كان لا يعنى بتجميل شعره، وأن يخرج في زخارف التضيع المختلفة، وهو مع ذلك قد يأتي بهذه الزخارف ولكن دون أن يتحذها مذهبا، إذ تأتي عابرة[2].

و اهتم ابن الرومي بجوانب أخرى ولكن ليس كثيرا لوني الطباق والجناس وكما أكثر بهذا الأخير في قوله:

قلت لما بدت لعينيّ شنعا ربّ شوهاء في حشا حسناء

قلن لولا انكشافنا ما تجّلت عنك ظلماء شبهة قتماء

قلت أعجب بكّن من كاسفات كاشفات غواشي الظلماء

فهو يطابق بين كلمتي شوهاء وحسناء، وهو يجانس بين كلمي كاسفات و كاشافات، إلاّ أنه يلاحظ أن ابن الرومي لم يكن يكثر من هذين اللونين، فهو ليس من أصحاب التصنع إنما هي أشاء تسقط في بعض شعره، وقد لا تسقط.

وكان أيضا لابن الرومي يهتم بجاب آخر في صناعته، وهو جانب القافية، فقد كان يطلب شواذها ولا يترك حرفا شاردا من خروفها إلا ويؤلف عليه قصيدة أو قصائد مختلفة. وليس ذلك كل ما يلفتنا في صناعة قوافيه، إنما تلفتما جوانب أخرى أشار إليها القدماء، يقول ابن رشيق «كان ابن الرومي يلتزم حركة ما قبل الروي في المطلق المقيد في أكثر شعره إقتداءً» فمن ذلك في الروي المطلق:

لم يسترح من له عينٌ مؤرقة وكيف يعرف طعم الراحة الأرقُ

فقد مضى في هذه المقطوعة يلتزم كسرة قبل الروي وهو هنا مطلق ويماثله في القيد قصيدته.

[1] . ابن الرومي ، المصدر السابق، ص350.

[2] . شوقي ضيف ، المصدر السابق ،ص210.

أبين ضلوعي جمرة تتوقدّ على ما مضى أم حسرة تتجدّد[1]

النزعة العقلية:

يترك ابن الرومي الحس إلى عالم عقله أحيانا على خلاف الخنساء التي اعتمدت في شعرها على الحس والارتجال فإنما تدرس الشعر عن فطرة فهذا ما يتسم به الشعراء الجاهلين وخاصة الخنساء التي غلبت عليها عاطفتها وانفعالاتها لأنها شديدة التأثر فابن الرومي يختلف عنها تماما فهو أُتي ملكة التصوير ولطف التخيل، وبراعة اللّعب بالمعاني والأشكال.

يقول ابن الرشيق القيرواني: «لبن الرومي شجرة الاختراع، وثمرة الابتداع... ولقد كان واسع البطن ولطيف الفطن».

ويقول المعري عنه في رسائل الغفران «ابن الرومي أحد من قيل عنه أن أدبه أكثر من عقله، وكان يتعاطى علم الفلسفة»

ويقول فيه ابن خلكان «هو صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها، ويبرزها في أحسن صورها ولا يترك المعنى معنا حتى يستوعب إلى آخره، ولا يبقى فيه بقية»

وقال المسعودي «كان من مختلقي الشعر، والموجودين في القصير والطويل، وكان الشعر أقل أدواته»[2]

. يعتبر ابن الرومي من الشعراء الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ويتناولون المعاني على طريقتهم، وقد صور زيه في شعره في قصيدته:

قولا لمن عاب شر مادحــه أما ترى كيف ركب الشجر

ركّب فيه اللّحاء والخشــب اليابس والشوك دونه الثمر

وكان أولى بأن يهذي ما يخلق رب الأرباب لا البشر

[1] . شوقي ضيف، المصدر السابق، ص216.

[2] . عصام الدين عبد السلام أبو زلال ، التعابير الإصلاحية بين النظرية والتطبيق ، دار الوفاء ، الإسكندرية، ص 102.

فاليعذر الناس من أسماء ومن قصر في الشعر أنه بشر

. تمتاز قصائده بالانسجام والوحدة في تأليفها، حتى كأنها قطعة واحدة مؤلفة تأليفا منطقيا لا عوج فيها ولا ضعف ولا خيال فيها بحيث يغلب في شعره العقل والنطق أكثر من العاطفة[1].

لم يكن الرومي يذهب مذهب البحتري في أن الشعر لا يحتاج إلى فلسفة ومنطق بل كان يرى أنهما أصلان مهمان في حرفته، فهو لا يعتمد عليهما في تفكيره، وهو يستخدمها في صياغته، حتى لتتخذ أبياته في كثير من نماذجه شكل أقيسة دقيقة، بل هو رجل من رجالا الفكر الحديث، وهو لذلك يأبى ألا أن يخرج نماذجه إخراجا حديثا.

فيه الفكر ، وفيه الفلسفة، وفيه منطق، وفيه تلك الصفات العقلية الجديدة التي يمتاز بها شعراء العصر العباسي من أسلافهم القدماء.

يقول ابن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولدُ

وإلا فما يبكيه منها وإنّمـا لأفسح مما كان فيه وأرغد

إذا أبصر الدنيا استهلّ كأنـه بها سوف يلقى من أذاها مهدّدُ

وللنفس أحولٌ تظلُّ كأنهـا تشاهد فيها كل غيب سيشهدُ

فإنك تحس فيها أكثر المنطـق واضحًا. وهذا أهمّ ما يفرق بينه وبين البحتري في صناعته إذ كان للمنطق تأثير واضح في صياغة شعره وتنسيق أفكاره.

ويمكن أن نلخص ذلك في جانبين: الجانب الأول ما يمتاز به شعر ابن الرومي من الوضوح الذي جعله يستقصي أطراف الفكرة حتى تتضح من جميع جوانبها، فهو رجل منطق، ورجال المنطق يعشقون البيان الواضح، ولعله من أجل ذلك كان شعره يمتاز بالطول فهو يستقصي

[1] . عصام الدين عبد السلام أبو زلال، المصدر السابق ، ص 102.

ويتعمق في عرض أفكاره، حتى تبرز بروزا دقيقا. أما الجانب الثاني فهو يمتاز به شعره من التنسيق الشديد والربط الوثيق بين أفكاره [1].

يقول عباس محمود العقاد: العلامات البارزة في قصائد ابن الرومي هي طول نفسه وشدة استقصائه للمعنى واسترساله فيه، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النّظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم، وجعلوا القصيدة أبياتا متفرقة يضمنها سمط واحد قل أن يطّرد فيه المعنى إلى عدة أبيات، وقلّ أن يتوالى فيه النّسق تواليا يستعص على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير وخالف ابن الرومي هذه السنة وجعل القصيدة كلاما واحدا لا يتم الإتمام المعنى.

إن ابن الرومي حقا استعمل النزعة العقلية في قصائده لكنه استعمل بعض العاطفة فيها فهذا ما نكره أو ما أراد قوله العقاد في عاطفة ابن الرومي فذكر أن ابن الرومي كان يستريح لها ويجد و يجد فيها ملاذه وراحته وقال عنه أنه كان يحب الطبيعة، ويستريح من محاسنها نفسها تتصبى الناطر إليها و تتبرح (....) ويرى وراء هذه الزينة التي تبدو على وجهها الشهرة بالعاطفه الإنسانية الشاعرة[2].

إذن ابن الرومي كان يحب الطبيعة مثلما كان عليه اليونانيين وكان يلجأ إليها ويجد فيها المؤنس في وحدته ورفيقه الذي لا يزول وقال في قيمة الطبيعة:

يذكّرني الشباب جبان عـذب على جنبات أنهار عـذاب

تقتبئ صلّها نفحـات ريح تهزُّ متون . أغصان رضـاب

يذكرني الشباب رياض حـزن ترتم بينها رزق الذبـاب[3]

[1] . شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، ط12، ص203.

[2] . عباس محمود العقاد، ابن الرومي حياته عن شعره، دار الكتاب العرب، مصر 1963.ص293.

[3] . أحمد حسين ديوان ابن الرومي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1994. ص 81.

خاتمة:

وفي الأخير ارتأينا من خلال دراستنا إلى التحقيقات والنتائج التالية:

أن كلا من الشاعرة المخضرمة الخنساء والشاعر العباسي ابن الرومي تأثرا بشكل كبير بموت أعز الناس عندهما، بحيث ترك هؤلاء العزيزين على قلوبهما آثار محزنة في حياتهما التي عاشها، فكانت حياتهما بائسة في أكثر جوانبها مما جعل الخنساء تصور أحاسيسها وعواطف الصداقة في أعمالها الشعرية كما نجد أيضا ابن الرومي حياته لا تعرف البهجة ولا التأنق في المعاش ما جعله يقف عند أدق الصانعين، هناك اختلاف طفيف بين ابن الرومي والخنساء فهذه الأخيرة تغلب في شعرها النزعة العاطفية الشديدة من شدة فقدانها لفراق أخويها، صخر ومعاوية فربما يعود ذلك إلى طبيعة عصر الخنساء، فقد كان الشعر في العصر الجاهلي يفيض من القلب ويصدر عاطفة الشاعر، وشعوره، بحيث تتميز هذه المراثي في الغالب على العفوية والبساطة والفطرة المستمدة من صحيفة الحياة ومشاهدة البيئة.

على عكس ابن الرومي فقد كان فكره الدقيق وما به أن يصبح من أصحاب مذهب التصنع، الزخرف وكأنه كان يأتي بهذا الزخرف والتصنع أحيانا مجازات للعصر ولا نخرجه من ثقافته الفلسفية وما يمتاز به من فكر عميق، فلهذا جاءت قصائد ابن الرومي يغلبها النزعة العقلية.

فمن جهة أخرى يجب علينا أن نعرف أنه من الطبيعي أن تتفوق الخنساء على أكثر من ابن الرومي في أشعار المراثي تفوقا لا نجده في فن آخر غير هذا الفن، ذلك أن المرأة بتكوينها النفسي والعاطفي والاجتماعي، هي أكثر استعدادا، فعاطفتها أسرع إنبعاثا و أعمق شعورا، وقدرتها على البكاء وبعث مكامين الشجي واللوعة لا تدانيها قدرة الرجال.

قائمة المراجع والمصادر.

. يوسف عطا الطريفي. شعر العرب . الأهلية للنشر والتوزيع . الأردن 2006.

. محمد عبد المنعم خفاجي. الحياة الأدبية في العصر العباسي . دار الوفاء. الإسكندرية 2004.

. محمد سراج الدين . الرثاء في الشعر الجاهلي . دار الراتب الجامعية . لبنان . باسنة.

سعد بوفلاقة . دراسات في الأدب الجاهلي . عنابة . 2006.

. سامي يوسف أبو زيد . الأدب العباسي . الشعر . دار الميسرة عمان .2011.

. ديوان الخنساء . دار صادر . بيروت. بدون سنة.

. أحمد طاهر طيفور أبي الفصل . بلاغات النساء . الجزائر . 2007.

. حمد وطماس . ديوان الخنساء . دار الأديب . لبنان . 2009.

. عبد عون الروضان . دار أسامة . عمان . بدون سنة.

. شوقي ضيف الفن ومذاهبه في الشعر العربي . دار المعارف . دون سنة.

. ابن الرومي . الديوان ج1، ج2، ج3.

. الأستاذ أحمد حسن بسبح . ديوان ابن الرومي . دار الكتب العلمية 1994.

. كاميليا عبد الفتاح . الشعر العربي القديم . دار المطبوعات . الإسكندرية . 2007.

. حسني عبد الجليل يوسف . علم البديع بين الإتباع و الإبتداع . دار الوفاء . الإسكندرية 2007.

. محمد ربيع علوم البلاغة . دار الفكر . الأردن . 2007.

. عصام الدين عبد السلام أبو زلال . التعابير الإصلاحية بين النظرية والتطبيق . دار الوفاء الإسكندرية بدون سنة.

. عباس محمود العقاد . ابن الرومي حياته عن شعره . دار الكتاب . مصر 1963.

. أ.د. قصي الحسين. شعر الجاهلية وشعراءها. منشورات المكتبة الحديثة. طرابلس لبنان 2006.

. منذر ذيب كفافي. الشعر الجاهلي في كتب المختارات الشعرية. عالم الكتب الحديثة. إربد الأردن 2006.

الفهرس:

ـ مقدمة

ـ الفصل الأول

ـ تمهيد.....2

ـ حياة الخنساء.....07

ـ قصة الخنساء مع أخويها صخر ومعاوية.....09

ـ مدى تأثر الخنساء بموت أخيها صخر.....13

ـ حياة ابن الرومي.....15

ـ شاعريته.....20

ـ مدى تأثر ابن الرومي بموت بموت ولده الأوسط.....21

ـ الفصل الثاني

ـ دراسة خصائص شعر الرثاء عند الخنساء وابن الرومي.....24

ـ النزعة العاطفية عند الخنساء.....25

ـ الصورة الفنية في شعر الخنساء.....26

ـ الصورة الفنية عند ابن الرومي.....32

ـ النزعة العقلية.....39

ـ خاتمة

ـ قائمة المصادر والمراجع

الفهرس